

افريقيا
من العبودية إلى الاشتراكية

سعد زهران

اطبق الظلام على افريقيا منذ حوالى خمسة قرون .

ففى اواخر القرن الخامس عشر طاف المستكشفون البرتغاليون بشواطىء القارة . وفى اعقابهم جاء تجار اوروبا ومغامروها ومبشروها ليقيموا على ارض القارة السوداء أكبر سوق للرقيق فى التاريخ .

واستمرت السوق اربعة قرون كاملة حرمت القارة اثناءها خيرة ما انجبت من قوة بشرية . أختطف خلال هذه القرون حوالى مائة مليون من الادميين ، الاباء والامهات من بين أطفالهم الرضع واهلهم الطاعنين ، والفتيان والفتيات من بين ذويهم واحبائهم ، وكلهم من الشبان القادرين ، ليساقوا مكبلين بالسلاسل،حيث الحياة الحيوانية فى حظائر البهائم ، والعمل الشاق تحت السياط ثم الموت التعس بلا استشهاد . واذ اقيمت سوق الرقيق وازدهرت، تعطلتطور المجتمعات الافريقية التى كانت قد بدأت تسير فى مدارج حضارة عريقة تشهد بها امبراطوريتا غانا ومالى القديمتان وأبقى النخاسون الاوربيون على النظم البدائية وسيدوها . ودفعوا القبائل الافريقية الكبرى — فى صراعها المستميت من أجل البقاء — الى قتال دام ضد بعضها البعض . ومزقوا القارة شر ممزق — ارضا واهلا ، ودفعوا أصحابها الى حافة الموت — فقرا وخوفا . هذا ، بينما اغتنى تجار اوروبا ومغامروها وفرك المبشرون اكفهم فرحا باتساع مملكة الكرادلة والبابوات .

وكأنما كان تجار غرب أوروبا وقراصنتها على موعد مع عصبة عسكرية غشوم فى شرق اوروبا ففى اوائل القرن السادس عشر ، لم تكد تنتهى معركة مصر الخاسرة مع أساطيل البرتغال شرقى أفريقيا فى مياه المحيط الهندى وحول مداخل البحر الاحمر الجنوبية ، حتى كانت جحافل العثمانيين تزحف مسرعة عبر الشام ، حيث انكسرت جيوش مماليك مصر ، بعد أن كانت قوتهم قد استنزفت ، ومواردهم قد نضبت بفعل التحدى البرتغالى .

وبنضوب مواردمصر، ثم انهيار قوتها العسكرية فتحت بوابة أفريقيا الشمالية لقوى الظلام الاقطاعى فى أبشع صوره ، بعد أن ظلت مصر تذود عنها قرونا طويلة ، وتحفظ للحضارة العربية الاسلامية اتصالها وازدهارها منذ صلاح الدين

الذى صمد للغزو الصليبى ، الى الظاهر بيبرس وخلفائه الذين صمدوا فى وجه المغول والتتر .

هكذا كان ظلام الاقطاع العثمانى فى شمال القارة العربى على موعد مع ظلام سوق الرقيق فى بقية القارة الزنجى .

وحتى الاحباش الذين تحصنوا فى ارضهم المنيعة ولاذوا بحضارتهم القديمة ، حصروا وحوصروا ، وحرموا — مع بقية شعوب القارة — من متابعة الفتوحات الباهرة للعلوم والفنون والافكار ، والتغيرات الكبيرة فى التعاليم والنظم والقيم — تلك التى تمخض عنها عصر النهضة على ارض أوروبا ، والتى فجرت فيما بعد الثورات الاوروبية البرجوازية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

استعباد شعوب القارة على أرضها

حتى اذا كان القرن التاسع عشر ، وانطلقت الثورة الصناعية من عقالها ، واخضعت الصناعة التجارة ، ثم امتزج راس المال الصناعى مع راس المال المصرفى فى راس مال مالى احتكارى قابض ، وسارت الرأسمالية الاوربية المتقدمة حثيثا فى طريق الامبريالية ، تكشف الامبرياليون اساليب حديثة لاستعباد شعوب القارة على ارضها . وعندئذ لم يجد قراصنة الغرب باسا من ايقاف تجارة الرقيق الكثيرة المتاعب الكريهة الرائحة وبخاصة انها كانت قد استنفدت اغراضها فى انجاز عملية التراكم الراسمالى البدائى فى الغرب المتقدم . وفى مؤتمر برلين (سنة ١٨٨٥) تم تقسيم القارة بين الدول الاستعمارية الكبرى حينذاك ، حيث حظى اللصوص الكبار — من استعماريى بريطانيا وفرنسا بالنصيب الاوفى ، وحظى البلجيك والبرتغال والالمان والاسبان والطليان كل بنصيب وظل هذا التقسيم معمولا به حوالى ستين عاما (مع تعديلات طفيفة استبعدت الالمان بعد هزيمتهم فى الحرب العالمية الاولى ، ثم الطليان بعد هزيمتهم فى الحرب العالمية الثانية) .

وغنى عن الذكر ان الاقطاع العثمانى المتخلف فى شمال القارة ، وتجارة الرقيق فى بقية اجزائها اخليا السبيل للاستغلال الاستعمارى الزاحف فى نفس الحقبة التاريخية فى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين .

وبعد ان كان التجار والمغامرون وتجار العبيد مكتفين باحتلال عدد من الموانى والمحطات التجارية والمراكز الامامية المتفرقة على شواطىء القارة ، رأينا الجيوش الامبريالية تخوض مسرعة فى دماء الافريقيين لتحتل أرض القارة كلها ولتكون فى حماية عملية الاستغلال الامبريالى القائمة اساسا على استغلال راس المال الاحتكارى فى التعدين وزراعة المحصولات التجارية ، وغيرها من الخامات اللازمة للصناعة الاوروبية ، معتحطيم الاقتصاديات التقليدية فى القارة وتحويلها الى سوق للمنتجات الصناعية الاستهلاكية القادمة من الغرب المتقدم .

وحيث كانت علاقات الانتاج البدائية او الاقطاعية التقليدية قد بدات تخلى السبيل لعلاقات انتاج راسمالية حديثة (كما كان الحال فى مصر) فان عملية الاستغلال الامبريالى تسللت الى المستعمرة فى يسر نسبى . اما فى معظم اجزاء القارة السوداء فان تصدير راس المال وحده لم يكن كافيا لاستغلال ثرواتها الطائلة ، وانما كان لا بد من تجنيد العمل الافريقى لاستثمار راس المال الاستعمارى فى التعدين والزراعة .

غير ان جذب الافريقيين للدخول فى دورة الانتاج الراسمالية لم يكن بالمهمة السهلة بسبب بقاء العلاقات البدائية فى كثير من ربوع أفريقيا من ناحية ، وسخاء ارضها وطبيعتها من ناحية اخرى . لذلك ، بدات سلسلة جرائم جديدة ، لاتقل بشاعة عن جرائم سوق الرقيق ، تهدف الى دفع الافريقيين الى المجاعة لكى يجبروا على العمل الرخيص لاحتكارات التعدين ومزارع الاقليات البيضاء .

سرقة الاراضى

فى اواخر القرن الماضى واوائل هذا القرن جرت عملية واسعة لتجريد الافريقيين من اراضيهم وحشرهم فى مساحات ومحلات واماكن خاصة للاقامة ، فى «معازل» مضروب حولها نطاق صحى ومحظور عليهم ، فى احوال كثيرة ، الا يتخطوها . ففى روديسيا الجنوبية مثلا ، اغتصبت ٤٩٪ من الاراضى المزروعة من اصحابها الافريقيين ، وقصر حق زراعتها على المستوطنين البيض . وفى جنوب افريقيا وصلت النسبة الى ٨٩٪ (!) وفى كينيا وضع ٦٠ الفا من البيض ايديهم على ١٦٫٥٠٠ ميل مربع ، هى ٣٠٪ من مجموع الاراضى الصالحة للزراعة . وطبيعى ان الاراضى المغتصبة هى اجود الاراضى ، واقربها الى الطرق الممهدة والسكك الحديدية ، وهى التى على صلة بمراكز التجارة والتسويق والموانى . بل ان التفرقة العنصرية فى هذا المجال وصلت الى حد تحديد سعرين مختلفين للمنتج الزراعى الواحد ، سعر عال لاصحاب المزارع البيض ، وسعر منخفض للزراع الافريقيين . ففى روديسيا الجنوبية — مثلا — كان السعر المحدد لكيس الذرة ، فى محصول عام ١٩٥٧ ، هو ٤٠ شلنا لاصحاب المزارع

البيض ، بينما الكيس نفسه يشترى من الزراع الافريقيين بسعر ٢٧ شلنا .

والادهى من كل ذلك ان غالبية الاراضى الخصبة التى طرد منها الافريقيون وحرمت زراعتها عليهم تركت بورا بلا زراعة ، ولا تحتل المزارع التى يملكها البيض الا نسبة ضئيلة منها . فحتى عام ١٩٥٧ لم يزرع المستوطنون البيض فى روديسيا الجنوبية الا ١ر١ مليون اكر من مجموع الاراضى الصالحة للزراعة التى يضعون ايديهم عليها والبالغ مساحتها ٤٨ مليون اكر (! !)

واذ حشر الافريقيون فى مساحات ضيقة ، وفرضت السوق الراسمالية الامبريالية عليهم حاصلات تجارية معينة ، اضطروا الى الاقلاع عن اساليب الزراعة الافريقية التقليدية التى تناسب ظروف التربة والمناخ الاقليمية ، والتى تعتمد على دورة الزراعة والرعى مع اعطاء الارض فرصة للراحة . وفرض الاوروبيون اساليب جديدة للزراعة انهكت التربة وافقرتها واصطحب ضيق المساحة التى يزرعها الافريقيون بانخفاض انتاجية الارض ، فتدهور مستوى معيشة الافريقيين المشتغلين بالزراعة الى حافة المجاعة، بل ان المجاعة ضربت مناطق كثيرة تتفجر باغنى الثروات الطبيعية لاول مرة فى تاريخ القارة (فى ١٩٤٦ ، مثلا ، انتشرت المجاعة فى ١٦ اقليما من اقاليم كينيا) .

الضرائب

جنبا الى جنب مع سرقة الاراضى وافقار الفلاحين الافريقيين ، فرض المستعمرون نظاما معينا للضرائب ، اهمها ضريبة الرأس ، بهدف اجبار «السكان الاصليين» على العمل فى المناجم ومزارع الاوروبيين للحصول على مبالغ نقدية يسددون منها الضرائب التى تفرضها السلطات وفى هذا الصدد لانجد ابلغ مما قاله السير برسى جيرورد ، وكان حاكما لكينيا عام ١٩١٣ ، قال : «اننا نعتبر أن الضرائب هى الوسيلة الوحيدة لاجبار سكان البلاد على ترك مناطق اقامتهم للبحث عن عمل ، انها الوسيلة الوحيدة لرفع تكاليف المعيشة عليهم ... وهذا هو الاساس الذى تقوم عليه سيطرتنا على مصادر العمل وتحديدنا لاسعاره . اذا رفعنا الاجور فان هذا من شأنه خفض مواردنا من العمل . ان زيادة الاجور سيمكن رب الاسرة او شيخ القبيلة من الحصول على ما يلزمه من ضريبة الرؤوس وضريبة الاكواخ بعدد اقل من العمال الذين يرسلهم للعمل خارج محلات اقامة الاهالى» .

وقد اجرى ب . ديبرى بحثا عن بتشوانالاند فى الفترة بين ١٩٣٨ ، ١٩٤٢ ، جاء فيه انه خلال هذه السنوات الاربع كان مجموع انفاق الاهالى ٧١٠ الف جنيه فى العام ، ولكن الدخل المباشر من العمل فى حدود المحمية لم يزد على ٢٤٣ الف جنيه ، بعجز سنوى قدره ٤٦٧ الفا . وبين ديبرى ان ذلك الحد من الانفاق كان من المستحيل النزول عنه ، حيث يشكل جزء كبير منه من الضرائب المباشرة وغير المباشرة . وهكذا ، على حد قول ديبرى : « لم يكن امام الافريقى الا ان يندرج فى عداد العمال لكى يوازن العجز فى ميزانية الاسرة عن طريق الاجر الذى يتقاضاه» .

وفى ٢٨ فبراير ١٩٥٩ ، كتب الباحث رونالد سيجال فى مجلة نيوستيتسمان تحت عنوان «مأساة جنوب افريقيا» يقول : «لما كان من المستحيل على الافريقيين ان يقيموا اود ملايينهم الكثيرة على مساحات الارض المحدودة التى تركت لهم ، فانهم يضطرون الى ارسال الرجال القادرين الى العمل فى مزارع البيض ومدنهم .. واذا تحالف الحظ والاجتهاد لاعفاء البعض من هجر محلاتهم فان ضريبة الراس (المفروضة على كل افريقى ذكر بالغ بين سن الثامنة عشر والخامسة والستين) قد رفعت فى العام الماضى بنسبة ٧٥٪ او تزيد ، لكى تصل الى ٣٥ شلنا فى العام وهكذا تتكفل الحكومة بعمل ماعجزت مجاعة الارض عن تحقيقه» .

السخرة

كتب جاك ووديس(١) فى كتابه « جذور الثورة فى افريقيا» يقول : «اعمل الامبرياليون سلاح الاكراه الاقتصادى لسوق الافريقيين الى العمل ، من مجاعة الارض وافقار الزراع الى فرض ضريبة الرأس وغيرها . غير ان الاكراه الاقتصادى وحده لم يكن كافيا لاشباع نهم اصحاب الاعمال الاوروبيين ، وبخاصة فى وجه المقاومة الصريحة من جانب الافريقيين . وعلى ذلك ، فان لم يسع الافريقى الى العمل عند الاوربيين بنفسه ، فلا بد من حمله قسرا على ذلك » .

وهنا ايضا نورد اعترافا صريحا على لسان احد عتاة الاستعماريين هو الكولونيل ايوارت جروجان ، الذى كان عميدا للمستوطنين الاوروبيين فى كينيا ، كتب عام ١٩٠٢ يقول : «لقد سرقنا ارضهم ، وعلينا الان ان نسرق ايديهم وارجلهم .. ان العمل الاجبارى هو النتيجة الطبيعية لاحتلالنا هذه البلاد» .

وقد ظلت السخرة نظاما مقرا ومعمولا به دون

---

(١) يعتبر كتب جاك ووديس اهم المراجع عن قارة افريقيا وقد نشرت الدار القومية اخيرا اهم واحدث هذه الكتب « افريقيا على طريق المستقبل » ترجمة احمد فؤاد بليغ .

حياء فى كل المستعمرات الافريقية حتى بعد الاتفاق الدولى بتحريمها عام ١٩٣٠ ، وانما لم يعدم الاستعماريون الاستمرار فيها تحت اقنعة قانونية مهلهلة — مثل الالتجاء اليها فى «حالات الطوارىء» او « لخدمة الاغراض الحربية » او « لصيانة المنشآت العامة » . كذلك هنالك اشكال مقنعة من السخرة او العمل الاجبارى مثل العمل لتسديد ضرائب متاخرة ، او منع العمال من ترك اماكن العمل كالمناجم والمزارع ، او اجبار العمال على التوقيع على عقود عمل ، او التجنيد الاجبارى الجماعى للايدى العاملة عن طريق شركات او مؤسسات تشرف عليها السلطات الاستعمارية .. الخ

لنستمع الى الشكوى التى تقدمت بها رابطة شاجا الثقافية (من تنجانيقا) الى مجلس الوصاية التابع للامم المتحدة فى اكتوبر ١٩٥١ : «ان الرابطة تعترض بشدة على نشاط هيئة الانتفاع من العمل وتطالب بحلها . ان هذه الهيئة ، وهى مؤسسة حكومية ، أقرب الى سوق العبيد منها الى هيئة لتجميع القوى العاملة ان الافريقيين يجندون للعمل من كل انحاء البلاد بأساليب لايمكن أن توصف بأنها اختيارية . وينقل هؤلاء الافريقيون التعساء بعيدا عن قراهم مسافات تصل الى ٨٠٠ ميل فى ظروف تقشعر من هولها الابدان . ان الماشية تعامل معاملة افضل بكثير من هؤلاء العمال .. ان حفنة من الرجال الفاحشى الثراء امكنهم ان يكبلوا جماهير الافريقيين الفقراء بأغلال لاتفترق عن اغلال العبودية الا قليلا» .

وفى ١٩٥٨ ، نشر مارفن هاريس ، استاذ الانثروبولوجى فى جامعة كولومبيا ، نشر بحثا عن المستعمرات البرتغالية فى افريقيا جاء فيه : «ان كل الرجال فى هذه المستعمرات يعتبرون فى نظر القانون كسالى الا اذا ثبت العكس ، وكل من لايثبت انه مستخدم عند احد اصحاب الاعمال (وهم جميعا من الاوروبيين والبرتغاليين بصفة خاصة) يمكن تجنيده للعمل الاجبارى لمدة ستة اشهر الا اذا تطوع للعمل عند احد المقاولين . ويمكن للموظف الادارى المحلى المختص أن يصدر امره بتجنيد اى افريقى للعمل الاجبارى» .

وحسب احصاءات الدارسين كان عدد الافريقيين الذين يعملون تحت السياط وفقا للنظم المختلفة للعمل الاجبارى فى المستعمرات البرتغالية فى اواسط الخمسينات حوالى نصف مليون افريقى يعملون فى ظروف لاتختلف عن العبيد .

ولعل اخرب وسائل السخرة واشدها وحشية ووقاحة هو المتبع فى جنوب افريقيا . فعلى الرغم من ان العمل الاجبارى ممنوع رسميا، الا ان السلطات — على حد تعبير اللورد هيلى — «تؤجر السجناء والمذنبين الذين يقضون مدة العقوبة الى من يرغب من اصحاب المزارع» وهذه العبارة البريئة المظهر التى ترد على السنة الاستعماريين تخفى وراءها حقائق منها :

فى ١٩٥٦ تم اعتقال وسجن ١ر٧٦٠ر٢٣٧ من الافريقيين فى اتحاد جنوب أفريقيا . وغالبية هؤلاء جريمتهم الوحيدة هى خرق قوانين المرور ومنع التجول . وهذه القوانين العجيبة التى لا وجود لها فى اى بلد آخر هى وسيلة السلطات فى جنوب افريقيا ، ليس فقط للسيطرة على القوى العاملة،ولكنها ايضا الحجةالتى تتذرع بها لاعتقال الافريقيين بالجملة ، وامداد مزارع الاوروبيين بسيل متدفق من العمل الاجبارى الرخيص .

وحتى الرقم الذى اوردناه ، وهو يزيد على ١ ٣/٤ مليون ، لا يدل على الحقيقة كاملة . فثمة عدد غير معلوم من المقبوض عليهم يخيرون بين المثول امام المحكمة بتهمة خرق قوانين المرور وبين قبول العمل فى مزارع البيض . واخذا لهؤلاء فى الاعتبار يمكن القول بأن عددا لايقل عن ثلث عدد الرجال الافريقيين القادرين على العمل يقبض عليهم سنويا ، ويرحلون مكبلين فى السلاسل للشغل تحت السياط فى مزارع البيض لقاء مبالغ تغطى مايتبلغون به من خبز السجن وحسائه .

وفى ذلك كتبت صحيفة لبراشن التى تصدر فى جوهانسبرج بجنوب افريقيا ، فى مارس ١٩٥٩، «ان الاعتقالات الجماعية هى رد الحكومة على ثورة الافريقيين على ظروف العمل الاقطاعية السائدة فى المزارع الكبيرة ... وهذه الاعتقالات لا تختلف اختلافا يذكر عن الغارات البربرية التى كان يشنها النخاسون على المجتمعات البدائية لاختطاف العبيد ، كما ان الهدف واحد ، وهو اشباع النهم الى العمل الرخيص لدى طبقة انانية حقيرة قاسية من ملاك المزارع» .

المراحل الاربعة لنضال الشعوب الافريقية

وفى مواجهة الطوفان الامبريالى ، مر نضال الشعوب الافريقية بالمراحل الاتية :

المرحلة الاولى :

مقاومة الغزو الاستعمارى : وكان الكفاح المسلح للشعوب والقبائل الافريقية هو الطابع العام لهذه المرحلة التى صاحبت الاكتساح العسكرى للقارة فى اواخر القرن الماضى واوائل

هذا القرن. وقدكتب للمستعمرين الغلبة في المعارك غير المتكافئة التى نشبت بين الامبريالية الزاحفة وبين شعوب أفريقيا . فقد كانت الامبريالية فى أوج قوتها وسيطرتها على العالم ، كما كان انفراد الامبراليين ببلاد صغيرة واجزاء متفرقة من القارة عنصرا هاما يضعف مقاومة زحف جيوش المستعمرين . كذلك لعبت الخيانة المحلية ، من كثير من رؤساء القبائل والاقطاعيين المحليين ، لعبت دورها فى التواطؤ مع الغزاه . لقد اوقع بالشعوب الافريقية العزلاء التى احاطت بها عوامل الغدر والخديعة والخيانة . وكان الاحتلال الاستعمارى للقارة اقرب الى المذابح وعمليات القتل الجماعى منها الى المعارك الحربية .

ومن امثلة حروب المقاومة الوطنية الباسلة : الحرب التى قادها الامير عبد القادر فى الجزائر — الثورة العرابية فى مصر — الثورة المهدية فى السودان — حرب ماتابيل فى روديسيا عام ١٨٩٦ ثورة بوشيرى عام ١٨٨٩ وثورة ماجى ماجى عام ١٩٠٦فى افريقيا الشرقية الالمانية — حرب بايلوندو عام ١٩٠٢ فى انجولا — مذبحة اكاسا فى نيجيريا عام ١٨٩٥ — وعشرات الامثلة الاخرى .

المرحلة الثانية :

بعد ان استتب الامر للسيطرة الاستعمارية ، دخل الافريقيون فى كل بلد **سلسلة من المعارك التى لاتتوقف ضد الاثار التى ترتبت على هذه السيطرة، وبخاصة ضد عمليات اغتصاب الاراضى والضرائب الجائرة والسخرة** . كما برزت — فى عدد من البلاد التى اخذت تظهر فيها برجوازية تجارية وزراعية نشيطة ، الى جوار هذه المشكلات الاساسية ، ظهرت مشكلات تتعلق بحقوق التجار المحليين ازاء الشركات الاحتكارية وعملائها المباشرين ، وحق المزارعين فى زراعة الحاصلات التى يختارونها وزيادة سعرها ، وتقليل عدد الاوربيين فى الوظائف الحكومية ، والمطالبة بوضع عدد من الافريقيين فى مراكز الادارة ، وكذلك المطالبة بزيادة الانفاق الحكومى على التعليم والصحة والخدمات الاجتماعية .. الخ .

وفى هذه المرحلة كانت الطبقة العاملة الافريقيه قد اخذت فى الظهور ، وتخطو خطواتها الاولى فى سبيل التنظيم النقابى ، وتلعب دورا متزايداً فى النضال ضد السيطرة الاستعمارية

واثناء الحرب العالمية الاولى نشطت حركات الاحتجاج والمقاومة لتجنيد الافريقيين ونهب ممتلكاتهم خدمة للمجهود الحربى للبلاد الاستعمارية

ولم تكن حركه الشعوب الافريقية عموما قد وصلت فى تلك المرحلة الى حد المطالبة بالاستقلال العام عن الدول الاوروبية الاستعمارية . وكانت اقصى ماتصل اليه الحركة هى مطالب عامة عن اشتراك الافريقيين — بقدر — فى ادارة شئون البلاد ، جنبا الى جنب مع السلطات الاستعمارية والمستوطنين البيض .

وغنى عن الذكر انه ، فى تلك المرحلة ، كانت مصر شذوذا على الصورة العامة ، حيث التطور الاجتماعى والسياسى فيها على درجة اعلى بالقياس الى غيرها ، وكانت الحركة السياسية الناهضة للمستعمرين الانجليز تنادى منذ البداية ، وبدرجات متفاوتة من الوضوح والجراة بالاستقلال وجلاء جيوش الاحتلال .

ويقدر الباحثون فى شئون افريقيا هذه المرحلة بالنسبة لغالبية بلاد القارة السوداء ، بأنها تمتد من بداية الحرب العالمية الاولى حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية .

وكانت هذه المرحلة حافلة بمحاولات دءوبة للتنظيم ليس على الاسس القبلية التقليديه ، ولكن على اسس اكثر ملاءمة لروح العصر ، وان كانت غالبية التنظيمات التى تكونت فى تلك الفترة اتخذت طابعا اجتماعيا وثقافيا ودينيا فى بعض الاحيان كما تتميز هذه المرحلة بمحاولات الترابط والوحدة بين مختلف اجزاء القارة وقياداتها . ففى الفترة من ١٩١٩ الى ١٩٤٥ عقدت خمس مؤتمرات افريقية ، بدات تحت قيادة الدكتور ديبوا — الاب الروحى لحركة الوحدة الافريقية . (المؤتمر الاول فى باريس عام ١٩١٩ ، والثانى فى لندن وبروكسل عام ١٩٢١ ، والثالث فى لشبونة ولندن عام ١٩٢٣ ، والرابع فى نيويورك عام ١٩٢٧، والخامس فى باريس عام ١٩٤٥) .

وكانت هذه المؤتمرات تضم عددا من المبعوثين الافريقيين الذين يدرسون فى عواصم الغرب ، وعددا من القادة المنفيين خارج بلادهم كما تضم مندوبين عن الجماعات الزنجية خارج افريقيا (من الولايات المتحدة ومنطقة الكاريبى) . وعلى الرغم من ان هذه المؤتمرات لم تكن تمثل الحركات التحريرية الفعالة على ارض القارة الا انها كانت تضم طلائع المثقفين والمناضلين الذين كان لهم فيما بعد دور مشهود فى قيادة الحركات التى تفجرت فى اعقاب الحرب العالمية الثانية مثل جومو كينياتا وقوامى نكروما. كما أن هذه المؤتمرات كان لها اثر مشهود فى انضاج الشخصية الافريقية وتعميق روح الوحدة والتضامن فى صفوف المناضلين الافريقيين . وجدير بالذكر ان المؤتمر الاول الذى انعقد فى باريس عام ١٩١٩ ، برئاسة الدكتور ديبوا ، اختار ان يجتمع بالقرب من مؤتمر فرساى ليحمل المؤتمرين على النظر فى مطالب القارة التى

بدات تموج بالحركة ، ونادى بضرورة اشراك الافريقيين فى ادارة شئون بلادهم بدور متزايد لكى يصلوا الى المرحلة التى يستطيع الافريقيون ان يديروا شئون افريقيا . وهكذا رفع المؤتمر الاول للوحدة الافريقية شعار الاستقلال ، وان يكن بشكل غير مباشر ، وكمطلب بعيد الامد . ولكن المؤتمر الخامس الذى انعقد فى باريس عام ١٩٤٥ اعلن وحدة الشعوب الافريقية والشعوب التى من اصل افريقى فى كل العالم ، ونادى بحق تقرير المصير والاستقلال لكل شعوب افريقيا وغيرها من الشعوب المقهورة ، والقضاء على كل اشكال التفرقة العنصرية .

وهكذا اكتسبت حركة التحرر الافريقية وضوحا فى الهدف وتصميما على المضى فى النضال الى نهايته الطبيعية ، وانتقلت بذلك الى مرحلة جديدة .

المرحلة الثالثة :

وهى التى تبدأ بانتهاء الحرب العالمية الثانية وتمتد الى أوائل الستينات . وهى مرحلة حققت فيها حركة التحرر الافريقية انتصارات تاريخية حيث حصلت أكثر من ثلاثين بلدا افريقيا على الاستقلال السياسى .

وتتميز هذه المرحلة بالاتى :

● **الوضوح والتصميم الثورى** ، الذى عبر عنه مؤتمر باريس التاريخى عام ١٩٤٥ . لنستمع الى جانب من البيان الذى وجهه المؤتمر الى الدول الاستعمارية : «ان جميع المندوبين يؤمنون بالسلام وكيف لا ، بعد كل أعمال العنف والعبودية التى قاسينا منها قرونا طويلة . ومع ذلك فان ظل الغرب مصمما على أن يتحكم فى البشرية بالقوة ، فان الافريقيين سيجدون انفسهم مضطرين الى الالتجاء الى القوة للحصول على حريتهم»

ويستطرد البيان : «... نحن لسنا على استعداد لان نتضور جوعا اكثر من ذلك ، وان نكد كد العبيد لكى نكفل ، بفقرنا وجهلنا ، الحياة الرغدة لارستوقراطية زائفة وامبريالية انتهى زمانها. سنسمع العالمحقيقة أحوالنا. وسنناضل بكل وسيلة من اجل الحرية والديموقراطية ورفع مستوانا الاجتماعى» .

● **روح التضامن العظيمة بين حركات التحرير** ، لا على نطاق القارة فحسب ، بل على نطاق العالم بأسره . استمع ايضا الى البيان الذى وجهه نفس المؤتمر الى شعوب المستعمرات : «ان جميع المستعمرات يجب ان تتحرر من السيطرة الامبريالية الاجنبية ، السياسية والاقتصادية على السواء ... ان هدف الامبرياليين هو الاستغلال . وان نضال شعوب البلاد المستعمرة والتابعة من اجل السلطة السياسية هو الشرط الضرورى والخطوة الاولى نحو التحرر الكامل سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ... ياشعوب البلاد المستعمرة والتابعة ، اتحدوا ! »

واثناء انعقاد المؤتمر فى اكتوبر ١٩٤٥ ، ارسل المجتمعون تحياتهم وتأييدهم الى شعوب الهند واندونيسيا وفيتنام ، وكانت فى تلك الاثناء فى غمرة كفاحها الدامى ضد جيوش الاحتلال البريطانية والهولندية والفرنسية .

● **برزت الطبقة العاملة والجماهير الشعبية الى مقدمة النضال الوطنى** ، وتميزت هذه الفترة بتعاظم دور التنظيمات الشعبية ، السياسية والاقتصادية . وبرزت النقابات العمالية الى المقدمة . وتكونت كثير من الاحزاب السياسية الجماهيرية التى توحد القوى الوطنية فى النضال ضد الاستعمار والتفرقةالعنصرية.وتميزت فترةفى اعقاب الحرب **باتساع الحركات الجماهيرية التى اشترك فيها العمال بدور ايجابى طليعى** . لنستمع اولا الى جانب من ذلك البيان الصادر عن مؤتمر باريس الموجه الى العمال : «ان عمال البلاد المستعمرة يجب ان يكونوا فى ميدان المعركة ضد الامبريالية ... واليوم لا يوجد سوى طريق واحد للنضال الفعال ـ هو تنظيم الجماهير » .

ثم هذه بعض امثلة الحركات الجماهيرية الكبرى التىاجتاحت القارةمن اقصاها الىاقصاها وزعزعت الارض تحت اقدام المستعمرين :

الهيئة الوطنية فى الجزائر والتى استشهد فيها ٤٥ الف جزائرى .

الحركة الوطنية فى مدغشقر والتى استشهد فيها ٩٠ الف وطنى .

الاضراب العام فى نيجيريا عام١٩٤٥تحت قيادة المجلس الوطنى لنيجيريا والكمرون .

الاضرابات العامة فى مصر ، فى فبراير ومارس ١٩٤٦ ،تحت قيادةاللجنة الوطنية للعمال والطلبة.

اضراب عمال المناجم فى جنوب افريقيا عام ١٩٤٦ .

الاضراب العام فى ممباســا عام ١٩٤٧ تحت قيادة الاتحاد الافريقى فى كينيا .

الاضراب العام فى ساحل الذهب (غانا) عام ١٩٥٠ ، والاضراب العام فى كينيا فى نفس العام .

اضراب العمال المصريين فى القاعدة البريطانية فى منطقة القنال ، ومغادرتهم جميعا للقاعدة عام ١٩٥١ . ... الخ الخ

● **امتداد الثورة المعادية للاستعمار الى صفوف القوات المسلحة** . ومن المعروف ان الحلفاء جندوا عددا كبيرا من شباب مستعمراتهم الافريقية ليحاربوا فى صفهم ضد قوات المحــور فى مختلف الجبهات . وقد عاد هؤلاء المحاربون الى اوطانهم بعد الحرب رجالا مختلفين ، بعد ان صقلتهم المعارك والمحن ، وهزت اعماقهم الدعايات التى كانـــوا يسمعونها اثناء الحرب . عاد هؤلاء ليناقشـــوا مستعمريهم الحساب على الوعود والشعارات التى اكثروا منها اثناء الحرب . ولم يرض غالبية هؤلاء — بعد تسريحهم — ان يعودوا الى حالة العبودية التى كانوا عليها قبل الجندية ، والتى وجدوا ان ابناء جلدتهم مازالوا يرزحون تحــت وطأتها . ومن ثم انتشرت، فى اواخر الحرب العالمية الثانية واعقابها حركات العصيان والتمرد على السلطات الاستعمارية . وها هى بعض الامثلة : عصيان لولوابورج فى الكونغو عام ١٩٤٤ — تمرد الجنود المسرحين فى كينيا عام ١٩٤٦ — مظاهرات الجنود المسرحين فى اكرا عام ١٩٤٨ ، حــيث سقط عدد كبير من القتلى والجــرحى — تمــرد القوات المسرحة فى شرق نيجيريا واســتيلاؤها على مدينة اوماهيا عدة ايام عام ١٩٥١ .. الخ

وهذه الاشكال البدائية من التمرد فى كثير من البلاد الافريقية كانت تقابلها حركات ثورية منظمة ذات اهداف واضحة وقيادات قوية فى صفوف القوات المسلحة فى البلاد الاكثر تطورا . وغنى عن الذكر ان حركة الضباط الاحرار فى مصر، ونجاحها فى تفجير ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، هى اشهر مثل على ذلك .

وقبل ان ننتقــل الى المرحلة الرابعة والاخيرة ننبه الى انه لاتوجد فواصل صماء بين كل مرحلة والتى تليها ، بل ان كل مرحلة لابد وأن تحتوى بقايا من المرحلة السابقة وبذورا من المرحلة اللاحقة كذلك فان هذه التقسيمات الى مراحل هى بالضرورة تقسيمات تقريبية تسرى على غالبية البلاد الافريقية دون ان تستبعد وجود الاستثناء . وان كــانت مصر استثناء فى كثير من المراحل السابقة ، فانما يرجع ذلك الى أنها كانت مجتمعا اكثر تطورا ، وان طبقة راسمالية ناشئة ، وفئة من المثقفين الذين يمثلونها كانت قد بدأت تظهر وتلعب دورا فى الحياة العامة المصرية منذ القرن الماضى ، وهذا بخلاف معظم المجتمعات الافريقية التى لم تشهد تطورا يذكر فى هذا الاتجاه الا فى اعقاب الحرب العالمية الثانية . كذلك فان الاستثناء الذى يشهده جنوب القارة مرده الى زيادة عــدد المستوطنين البيض فى اتحاد جنوب افريقيا ، وروديسيا الجنــوبية ، والمستعمرات البرتغالية ، بحيث تشكل من هذا الثالوث تحالف غير مقدس للابقاء ، بأى ثمن ، على الحكم العنصرى الذى هو اسوأ اشكال السيطرة الاستعمارية .

وبصفة عامة ، فان تاريخ حركة التحرر فى افريقيا يشهد بأن النضال كان يتزايد عنفا بازدياد عدد البيض فى المستعمرة . ففى المســـتعمرات الفرنسية السابقة ، مثلا ، كان نضال الشـــعب الجزائرى وتضحياته اكثر منها فى اية مســتعمرة فرنسية أخرى . فقد كان فى الجزائر مليون ونصف مليون مستوطن فرنسى . كذلك الحال فى المستعمرات الانجليزية ، حيث يبلغ نضال الشعوب الافريقية اشد درجات العنف فى جنوب افريقيا (٣,٥ مليون مستوطن) ، ثم روديسيا الجنوبية (٢٠٠ الف مستوطن) . وكذلك بالنسبة للمستعمرات البرتغالية انجولا (١٥٠ الف مستوطن) ، وموزمبيق (١٠٠ الف مستوطن) .

المرحلة الرابعة — وهى المرحلة الحالية — هى النضــال ضــد الاســتعمار الجديد

والاستعمار الجديد ، فى كلمة ، هو الابقــاء او السعى للابقاء، على جوهر الاستغلال الامبريالى لشعب بلد معين ، حتى بعد أن يرفع هذا البلد راية الاستقلال ، وتصبح له حكومة من ابنائه ، وعلم قومى ، ونشيد وطنى ، ومقعد فى الامم المتحدة وممثلون دبلوماسيون فى مختلف عواصم العالم . حقيقة أن هذا الشكل من السيطرة الامبرياليــة كان معروفا منذ زمن طويل فى كثير من البلاد التى كانت تسمى باشباه المستعمرات — كما كانت الحال فى جمهوريات امريكا اللاتينية والصــين ومصر والعراق فيما بين الحربين .. الخ . غير ان هذا لم يكن الشكل الغالب للسيطرة الامبريالية ، كما كان — فى غالب الاحيان — تعبيرا عن قـــوة الامبرياليين ونتيجة لتناقضات محتدمة فيما بينهم . اما اليوم ، فان الاستعمار الجديد هو الشــكل الاساسى للاستغلال الامبريالى ، كما أنه — فى غالب الاحيان — تعبير عن ضــعف الامبرياليين وانحسار نفوذهم أمام قوة حركات التحرر الوطنى وتعاظم قوة الاشتراكية وانتصاراتها ، وهو كثيرا

مايكون نتيجة لتكاتف الامبرياليين وتكتلهم فى مواجهة قوى التحرر والاشتراكية .

وكان لقادة حركات التحرر فى افريقيا فضل كشف النقاب عن الاساليب الامبريالية فى استغلال الشعوب حديثة الاستقلال ، وهم الذين نحتوا اصطلاح «الاستعمار الجديد» للتعبير عن تلك العملية والتنبيه الى انها اصبحت الخطر الاول على البلاد النامية ، وكان ذلك فى المؤتمر الثالث للشعوب الافريقية الذى انعقد فى القاهرة فى مارس ١٩٦١ ، وتعتبر قرارات هذا المؤتمر وثائق تاريخية ، ودروسا ثورية بالغة الاهمية حذرت الشعوب من الهجوم المضاد الذى بداه الامبرياليون بعد سقوط امبراطورياتهم الاستعمارية العتيقة . ذلك ان نواقيس الخطر دقت فى افريقيا قبل أن تنتهى دقات طبول النصر . ففى عام ١٩٦٠ وهو العام الذى استقلت فيه ١٧ بلدا افريقيا ، وسمى — بحق — عام افريقيا ، فى نفس هذا العام تم الهجوم الغادر على الكونغو عشية استقلاله واغتيل الزعيم لومومبا ، وتحول استقلال البلد الافريقى الكبير الى مجرد طقوس شكلية يستفيد منها — الى جانب الامبرياليين والمستوطنين — حفنة عملاء من امثال تشومبى وكازافوبو وموبوتو كذلك كانت السوق الاوروبية المشتركة قد بدات نشاطها فى القارة لتحول ثلاثة عشر بلدا من المستعمرات الفرنسية السابقة — بالاضافة الى ثلاث دول أخرى ، الى دول منتسبة اوملحقة بالسوق ، حيث تدعم مركز رأس المال الامبريالى الاوروبى تحت مظلة الجماعة الاقتصادية الاوروبية ، وخلق ستارا رقيقا من استقلال هزيل .

ومنذ مؤتمر القاهرة ، مارس ١٩٦١ ، ومناهضة الاستعمار الجديد هى النقطة الاولى فى قائمة المهمات التى تواجه ، لا شعوب افريقيا وحدها ، وانما شعوب القارات الثلاث جميعا .

وبعد التجارب المريرة والانتكاسات المؤلمة التى اصابت عددا من النظم المتحررة فى العامين الاخيرين نتيجة للنشاط التخريبى المحموم للاستعمار الجديد ، وبخاصة فى غانا واندونيسيا بالاضافة الى ما شهده العالم من تدخل عسكرى دموى ضد ثورتى الكونغو والدومينيكان ، وحرب الابادة التى تشن ضد حرب فيتنام .. بعد كل ذلك يمكن أن نقول ان **الهدف الاساسى للاستعمار الجديد هو الحيلولة — بأى ثمن وبكل وسيلة — دون انتقال الثورة فى البلاد حديثة الاستقلال من مرحلتها السياسية الوطنية الى مرحلتها الاجتماعية الاشتراكية**. فطالما بقيت علاقات الانتاج فى هذه البلاد علاقات رأسمالية فى الاساس ، وطالما ظلت جزءا من النظام الرأسمالى العالمى ، فالنتيجة البديهية هى التبعية للدول الامبريالية الكبرى .

وحتى اذا كان بعض هذه البلاد قد سار خطوات فى سبيل تحقيق استقلالها الاقتصادى ، فان صرفها عن طريق الاشتراكية كفيل باعادتها — ان آجلا او عاجلا — الى حظيرة التبعية الاقتصادية والسياسية للامبريالية العالمية .

ووسيلة الاستعمار الجديد الاساسية لتنفيذ مخططه فى اى بلد هى ، على حد تعبير منظرى الامبريالية ، **خلق طبقة عازلة فى البلد المعين**. وانما تكون هذه الطبقة عازلة بين الامبرياليين وشعب ذلك البلد ، وتقوم بدور الشريك الصغير للامبرياليين فى اقتسام ثمرات استغلال الشعب واستنزاف ثرواته القومية ، كما تقوم هذه الطبقة بكبت الحركة الثورية المناضلة من اجل الاشتراكية فى بلادها باعمال جهاز دولة موروث عن عهد السيطرة الاستعمارية متمرس فى ارهاب الشعب واخضاعه .

وليس للمستعمرين الجدد شروط ومواصفات ثابتة فيما يتعلق بهذه الطبقة ، انما الامر يتوقف على درجة النضج الاجتماعى والسياسى فى كل حالة على حدة . فان كانت الطبقة العازلة تشكل من الملوك والامراء ورؤساء القبائل والعشائر الذين يتلفعون بالشال او الزعبوط او يضعون على رؤوسهم العقال او الطربوش او الطرطور كان ذلك افضل . ولكن لابأس ، ان دعت الضرورة من تقديم طبقة عازلة «متفرنجة» من التجار وصغار رجال الاعمال ونفر من حملة الثقافات الاستعمارية وخريجى جامعات الغرب من ذوى العقلية التى تدين بالولاء للقيم الراسمالية وتحتقر الشعوب وتخشى الثورة ، وفئات من البيروقراطيين ومحترفى الحكم والادارة . بل لامانع — ان كانت حركة الطبقة العاملة لها وزن كبير فى كفة الصراع السياسى والاجتماعى — لامانع من أن تضم الطبقة العازلة نفرا من القيادات العمالية الصفراء التى تتمتع بأوضاع مادية واجتماعية متميزة وترتبط بالاتحاد الحر لنقابات العمال (وهو الاتحاد الذى يستند الى ائتلاف النقابات البريطانية والامريكية ويعمل فى خدمة الامبريالية ويضم اتحادات نقابية من عدد كبير من البلاد التى يمتد اليها نفوذ الاستعمار الجديد) . بل لامانع من جذب فئات محدودة من العمال الذين يعملون فى بعض الصناعات الاستخراجية الوفيرة الربح والاغداق عليهم دون غيرهم بهدف عزلهم عن غالبية الكادحين واستخدامهم فى طعن حركة الجماهير العريضة الوفيرة الفقر الشديدة الحرمان .

والسلاح الايديولوجى الاساسى الاثير لدى المستعمرين الجدد وطبقتهم العازلة الحارسة من اجل تثبيت النظام الرأسمالى فى اى بلد ، هو **تحريك شبح التخويف من الشيوعية** ، بالاستناد الى ترسانة من الاكاذيب التى اختلقها المستعمرون وروجوها فى مستعمراتهم عشرات السنين ضد

الاتحاد السوفييتى وغيره من البلاد الاشتراكية .
وإذ تفتضح هذه الاكاذيب وتتوطد دعائم الصداقة بين الاتحاد السوفيتى وكثير من البلاد حديثة الاستقلال ، نجد عملاء المستعمرين الجدد من ملوك وارهابيين ومبشرين يلجأون — دون حياء — الى **محاولة استخدام الدين ، كسلاح فكرى فى حربهم المستميتة ضد حتمية الحل الاشتراكى .**

اما **السلاح السياسى الاساسى** الذى يستخدمه المستعمرون الجدد وعملاؤهم ، **فهو تفتيت وحدة القوى الثورية المناهضة للامبريالية** . ويتم ذلك باعمال ذلك السلاح الفكرى السام ، سلاح معاداة الشيوعية ، والدس بين البلاد الوطنية والدول الاشتراكية ، أو باعمال الخلافات والنزاعات العرقية والقبلية ، والتشبث بالحدود المفتعلة التى خلقها المستعمرون لتمزيق وحدة القارة ودفع شعوبها ضد بعضها البعض .

والسلاح الاقتصادى يتلخص فى الابقاء على اقتصاديات البلد المعين فى حاله من التخلف والتبعية وتتوقف تفاصيل تنفيذ ذلك الهدف العام على درجة النضج الاقتصادى فى كل بلد على حدة . فمن الاحتفاظ بمعظم البلاد فى مستوى مصادر المواد الخام من المنتجات الزراعية والمعادن الى السماح ببعض الصناعات الاستهلاكية والخفيفة بل ربما دعت دواعى المنافسة مع ما يقدمه الاتحاد السوفييتى والبلاد الاشتراكية من مساعدات لبناء صناعات قومية للبلاد النامية — ربما دعا ذلك الى اسهام الامبرياليين فى عدد من المشروعات الصناعية الاساسية . وانما يكون كل شىء فى اطار المحاولة الدءوبة للحيلولة دون انتقال البلد المعين الى الاشتراكية .

ولعل اخطر الاسلحة الاقتصادية هو سعى الاحتكارات الدولية الدائم للهبوط باسعار منتجات البلاد النامية التى تعتمد عليها تجارتها الخارجية بالنسبة لاسعار المواد المصنوعة من منتجات البلاد الصناعية المتقدمة فى الغرب الامبريالى ، ومايترتب على ذلك من استنزاف همجى لموارد غالبية البلاد النامية واحباط مساعيها لبناء صناعاتها القومية .

والخلاصة

أن المستعمرين الاوربيين اشتغلوا بتجارة الرقيق فى افريقيا حوالى اربعة قرون ، اختطفوا أثناءها خيرة ماجادت به القارة من ثروة بشرية .

وان هؤلاء المستعمرين ، فى ظل الامبريالية ، واصلوا سياسة استعباد شعوب القارة ونهب ثرواتها وهى فى أوطانها ، بسرقة أراضى الافريقيين وفرض الضرائب ونظم السخرة ، تحت حراب احتلال دموى وبالاعتماد على طابور بغيض من المستوطنين البيض .

وانهم يلجأون ، اخيرا ، الى اعمال اساليب الاستعمار الجديد لمواصلة الاستغلال الامبريالى حتى بعد أن رفعت معظم بلاد القارة أعلام الاستقلال . وهدفهم الاساسى هو الحيلولة دون انتقال الثورات الوطنية التحريرية الى مرحلتها الاجتماعية الاشتراكية ، معتمدين على طبقة عازلة من الملوك والامراء وشيوخ القبائل والاقطاعيين والبرجوازيين المتفرنجين المعادين للشعب ، والنقابيين الصفر وفئة من البيرقراطيين ومحترفى الحكم والادارة .

وان شعوب القارة ارتبطت مقدراتها فى مصير واحد منذ سيطر الاستعماريون عن طريق الرق القديم الى محاولاتهم لاعادة السيطرة أو احكامها عن طريق الاستعمار الجديد ، وان هذا الارتباط لم يكن أشد قوة ووضوحا مما هو اليوم .

وان هذا التطور الهائل هو ، فى حد ذاته ، تعبير عن أن ظل السيطرة الاستعمارية ينحسر عن القارة المناضلة ، كما ينحسر عن العالم بأسره وأنه كما انتهت تجارة العبيد ثم انهارت الامبراطوريات الاستعمارية القديمة — فان المستعمرين الجدد وعملائهم سيهزمون حتما تحت ضربات الشعوب المناضلة — وذلك :

— بالقضاء على بقايا السيطرة الاستعمارية المباشرة والحكم العنصرى البغيض فى جنوب القارة .

— ورفع شعار الانتقال من الثورة الوطنية التحريرية الى الثورة الاجتماعية الاشتراكية فى كل ربوعها .

— والسير فى معركة الوحدة الافريقية جنبا الى جنب مع معركة تحريرها من الاستعمار والسير بها فى الطريق المحتوم الى الاشتراكية .

— وتوحيد كل القوى الثورية فى القارة ، المناهضة للامبريالية والاستعمار الجديد والتفرقة العنصرية .

— ودعم الجبهة العالمية المدافعة عن السلام والتحرر ، المعادية للامبريالية والحرب ، وذلك بمزيد من التضامن بين الدول المتحررة والبلاد الاشتراكية ، والحركات الثورية المعادية للاستعمار والراسمالية ، فى البلاد المقهورة والدول النامية والمتقدمة جميعا .